أحاديث الباشا :

الطَّماطم السِّياسيُّ ـ ١ ـ

كان (م) باشا[١] ـ رحمه الله ـ داهيةً من دهاةِ السِّياسة المصريَّة ، يلتوي مرَّةً في يدها التواء الحبل ، ويستوِي في يدها مرَّةً استواء السَّيف ، ولا يُرى أبداً إلا منكمِشاً ، مُتَحرِّزاً ، كأنَّ له عدوّاً لا يدري : أين هو ، ولا متى يقتحِمُ عليه ؟ ولكنَّه ـ كغيره من الرؤساء الذين كانوا آلاتٍ للكذِب بين طالبِ الحقِّ ، وغاصبِ الحقِّ ـ يعرف أنَّ عدوَّه كامنٌ في أعماله .

وكان ذكيّاً أريباً[٢] ، غيرَ أنَّ مُلابَسَتَه للسِّياسة الدَّائرةِ على مِحْورها جعلت نصفَ ذكائه من الذَّكاء ، ونصفَه من المكر ؛ فكان في مُراوغته كأنَّ له ثلاثةَ عقول : أحدُها مصريٌّ ، والآخرُ إنجليزي ، والثَّالثُ خارجٌ من الحالين .

وبهذا تقدَّم ، وعاش أثيراً عند الرُّؤساء من الإنجليز ، واستمرَّت مجارِيه مُطَّردةً لديهم حتَّى بلغوا به إلى الوزارة ؛ إذ هي حَسَنَ الفهم عنهم ، سريعَ الاستجابة إليهم ؛ يفهمُ معنى ألفاظهم ، ومعنى النيَّةِ التي تكون وراء ألفاظهم ، ومعنىً آخرَ يتبرَّعُ هو به لألفاظهم . . . فكان هو وأمثالُه في رأي تلك السِّياسة القديمة ، رجالاً كالأفكار : يوضع أحدُهم في مكانه من الحكم ، كما توضعُ صِيغةُ الشَّكِّ لإفساد اليقين ، أو صيغةُ الوهم لتوليد الخيال ، أو صيغةُ الهوى لإيجاد الفِتنة .

* * *

وكان صديقي (فلان) ـ رحمه الله ـ صاحبَ سرِّه (السِّكرتير) ، وقد وثِقَ به الباشا حتَّى إنَّه كان يُعَالِنُه بما في نفسه ، ويبثُّه همومَه ، وأحزانَه ، ويرى فيه دنيا حرَّةً يخرجُ إليها كلَّما ضاقت به دنيا وظيفته ، ويستعيرُ منه اليقينَ أحياناً بأنَّه لا يزال مصريّاً لم يتمَّ بعدُ تحويلُه في الكرسيِّ . . .

فحدَّثني الصَّديقُ بعد موت هذا الباشا ، قال : إنَّه دعاه يوماً ليُفَاتِحه الرأيَ في

---

(١) انظر : « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعي » . (ع) .

(٢) « أريباً » أَرُب : كان ذا دهاء وفطنة ، فهو أريب . والأريب : العاقل .

أمرٍ من أموره ، ثمَّ قال له : إنَّ الرئيس الإنجليزي غيرُ مطمئنٍّ إليك ؛ لأنَّ حقيقةً من الحقائق الصَّريحةِ ظاهرةٌ على وجهك ، فأنت تنظر إليه ، وكأنَّك تقول له بعينيك : إنَّك مصريٌّ مستقلٌّ .

قال صاحب السِّرِّ : لئن كان ذلك ما يغضبه ؛ إنَّ الخطْبَ لهيِّن ، فلستُ أنظر إليه بعد اليوم إلا من وراء نظارةٍ سوداء . . .

فضحك الباشا ، وقال : يا بنيَّ ! هذا الإنجليزيُّ عندنا كالشَّيطان : ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف : ٢٧] ووالله يا بنيَّ إنِّي لأشدُّ أنفةً منك ، وإن صدري لشَجِيٌّ ممَّا أنا فيه من هذا الكرب ، ولكنَّنا نحن الشرقيِّين قد ضِعنا منذ فقدنا الشَّخصيةَ الاجتماعية .

أتراك تفهم شيئاً لو قلتُ لك : رجلٌ ، أسدٌ ، جبلٌ ، مدينةٌ ، أسطول ؟ إنَّ تركيبنا الاجتماعيَّ شيء كهذا الكلام : فيه من ضخامة اللَّفظ بقدر ما فيه من انحلالِ المعنى ، واضمحلاله . ولكلٍّ كلمة إذا أفردتْ معنى صحيحٌ يقوم بها وتقومُ به ، غيرَ أنَّه يتحوَّل في الجملة إلى معنىً كَلاَ معنى .

أصبح الشَّرقيُّ يعيشُ في أمَّته على قاعدةٍ : أنَّه منفردٌ لا صلةَ بينه وبين الأطرافِ ، لا في الزَّمان ، ولا في المكان ، ونسيَ معنى الحديث الشريف : « اعملْ لدنياك كأنَّك تعيشُ أبداً »[1] . فماذا كان يريد أعظمُ المصلحين الاجتماعيين من قوله : « كأنَّك تعيش أبداً » ؟ إلا أن يقرِّر لأمَّته : أنَّ الفردَ ينبوعُ الأجيال المقبِلة كلِّها ، فليعملْ لها ، ولنفسه كأنَّها موقوفةٌ عليه ، وكأنَّه مستمرٌّ فيها .

هذه حكمةٌ إسلاميَّة دقيقةٌ ، عندنا نحن لفظُها ، ولسنا نعرف معناها ، وعند الإنجليز معناها ، ولا يعرفون لفظها . أهمُ المسلمون ، أم نحن ؟

وعلى قاعدة الانفراد انفردَ كلُّ شيءٍ ، فآثر الشَّرقيُّ حياتَه على وطنه ، وقدَّم لذَّته على واجبه ، وتعاملَ بالمال في مواضع المعاملة بالأخلاق ؛ وكان طبيعيّاً مع هذا أن يَختصر الدِّينَ اختصاراً يجعله مقداراً بين مقدارين ، فلا هو دينٌ ، ولا هو

---

(١) قال الألباني : لا أصل له مرفوعاً ، وإن اشتهر على الألسنة في الأزمنة المتأخرة ، إلا أن له أصلاً موقوفاً عن عبد الله بن عمرو . انظر : السلسلة الضعيفة(١/ ٦٣ ـ ٦٥) .

غيرُ دين ؛ وبذلك يناسبُ فرديَّتَه ، ويقعدُ تحت حُكمِه ، وهو خارجٌ عليه ؛ فترى الرَّجلَ من هذه الملايين يؤمن بالله ، وهو يَحلِفُ به كذِباً على درهم ، ويصلِّي ، ويَفْجُر في يومٍ واحد ، ويتعبَّد في نفسه ، ويخونُ سواه في وقتٍ معاً .

ومتى كانت الحالةُ النَّفسيَّة للأمَّة هي هذه الفرديَّةَ ومصالحَها ودواعيَها ؛ كان الكذِبُ أظهرَ خِلالِ هذه الأمَّة ؛ إذ هو انفرادُ الكاذب بحظِّه ، ومصلحته ، وداعيته ؛ ولا يكذبُ عليك إلا من يرجو أن تكونَ مغفَّلاً ، أو من قدَّر في نفسه أنَّ المعاملةَ العامَّةَ في الأمَّة هي على قاعدة المغفلين . . . ويكذبون في هذا أيضاً ، فيسمونه حِذاقاً ، وبراعةً (وشطارةً) .

وإذا عمَّ الكذِبُ ؛ فشا منه الهزلُ ؛ فكلُّ كاذبٍ هازلٌ ، وهل يَجِدُّ الكاذبُ وهو يكذبُ إلا إذا كان مجنوناً ؟ ومن الهزلِ ضَرْبٌ هو المباسطة بالكذب ، ومنه ضربٌ من كذب الحقائق ، ومنه مِن كذب الخيال ، وكيفما دارتِ الحالُ ؛ لا تجده إلا كذباً .

ومتى صار الكذِبُ أصلاً يعْمَلُ عليه ، تقرَّر عند النَّاس : أنَّ الكلامَ إنَّما يقالُ ؛ ليقالَ فقط . أفلستَ ترى الرَّجُلين ؛ إذا أخبر أحدُهما صاحبَه بالخبر فيه شيءٌ من الغرابة ، أو البعد ، لا يكلِّمه الآخَرُ أولَ ما يتكلَّم إلا أن يسأله : صحيحٌ ؟ صِدْقٌ ؟

ولا أضرَّ على الأمَّة من هذه العقيدة ـ عقيدةِ : أنَّ الكلامَ يقالُ ؛ ليقالَ فقط ـ فإنَّها هي طابَعُ الهزل على أخلاقِ الأمَّة ، وعلى كلِّ أحوالها ، وعلى حكومتها أيضاً .

ومن الهزل ، والكذب ترانا مبالغين في كلِّ شيء ، حتَّى لَيكونُ لنا الواحد كالآحادِ في غيرنا ، فنجعلُه مئةً بصِفْرين ، نجيء بأحدهما من اعتيادِنا الكذبَ على الحقيقة ، ونجيء بالآخَرِ من حقيقةِ إفلاسنا .

هذه مبالغةٌ خطرةٌ ، وأخطرُ ما فيها أنَّنا بها نريدُ المبالغةَ في الدَّلالة على الأشياء ، فتنقلب مبالغةً في الدَّلالة علينا نحن ، وعلى كَذِبِ طباعنا ، وعلى فَوضى العقل فينا . نعم وحتَّى تُثبتُ أنَّنا لا عزمَ لنا ، من كونها مبالغةً لا تدقيقَ في معناها ؛ وأن لا صبرَ لنا ، من أنَّها لا ثباتَ لحقيقتها المهزومة ؛ وأن لا شدَّةَ لنا في طلب الحقِّ ، لأنَّنا بها من أهل الغَفلةِ في وصف الحقِّ ؛ وأنَّنا لا نتمثلُ العواقبَ ؛ إذ

نُرسل الكلامَ إرسالاً ، ولا نخشى ما يكونُ من عاقبته .

وأيسرُ ما يُفهم من هذه المبالغات التي أصبحت طريقةً من طرق الشَّعبِ في التعبير ؛ أنَّ هذا الشَّعبَ لا يصلح في شيءٍ إلا بالحكومة ، فهو نفسُه كالمبالغة ، والحكومةُ له كالتَّصحيح ؛ وهذه هي العلَّةُ في أنَّ الشَّعبَ الكَذوبَ يلجأ إلى حكومته في كلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ في العمل ، كما أنَّها هي العلَّةُ في أنَّ حكومتَه تكذبُ عليه بكلِّ صغيرةٍ ، وكبيرةٍ في السِّياسة .

ومن أثر الكذبِ الشَّعبيِّ والمبالغةِ الشَّعبية ، ما نراه من اهتمامِ كلِّ فردٍ بما يقول النَّاسُ عن أعماله ، فيديرُها على ذلك ، وإن قلَّت منفعتُها ، وإن فَسَدت حقيقتُها ، وإن جَلَبتْ عليه من الضَّرر في ماله ، ونفسِه ما هي جالبةٌ ؛ فقاعدتُهم هي هذه : ليس الشَّأن في الحياة للعمل في نفسه ، ولكن فيما يقالُ عنه ؛ فإن لم يُقَلْ شيءٌ ؛ فلا تعملْ شيئاً . . . .

هذه يا بنيَّ ! أمةٌ لا يكون حكَّامُها إلا مبالغاتٍ أيضاً . . .

* * *

قال صاحب السِّرِّ : وارتفع من الطَّريق صوتُ بائعٍ ينادي على سِلعته : أحسن من التُّفَّاح يا طماطم . . .

فضحكَ الباشا ، وقال : هكذا يقولون لنا عن الطَّماطم السِّياسيِّ العَفِن : إنَّه ليست تفاحاً ، وحَسْبُ ، بل هو أحسنُ من التَّفاح . . .

إنَّ الأمَّةَ لن تكونَ في موضعها إلا إذا وضعت الكلمةَ في موضعها ، وإنَّ أوَّلَ ما يدلُّ على صحَّةِ الأخلاق في أمَّة كلمةُ الصِّدقِ فيها ، والأمَّةُ التي لا يحكمها الصِّدقُ لا تكونُ معها كلُّ مظاهر الحكم إلا كَذِباً ، وهَزلاً ، ومبالغةً .

* * *